مأزق النظام الطائفي والصراعات الدولية

نجاح واكيم*

عندما أشعل محمد البوعزيزي النار في جسده، لم يكن يعرف أنّ بلاده كانت أشبه ببرميل من البارود، وأنّ هذا البرميل يقع وسط منطقة مكدسة بمواد سريعة الاشتعال تغطي مساحة العالم العربي كله، بممالكه وجمهورياته ومشيخاته. وعندما تدفقت الجموع إلى الشوارع والساحات في تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا والبحرين والأردن والسعودية وغيرها، ترفع شعاراً واحداً يختصر كل الشعارات الأخرى وهو: «الشعب يريد إسقاط النظام»، لم تكن الجموع تعرف أنّ النظام الذي تريد إسقاطه قد سقط بالفعل، حتى من قبل أن تنزل إلى الشوارع والساحات، ومن قبل أن يحترق جسد محمد البوعزيزي. فالحقيقة هي أنّ الأنظمة العربية، ودعوني أقول أيضاً الكيانات السياسية العربية القائمة، فقدت بانهيار النظام الدولي القديم الأساسات التي قامت عليها. الأساسات الجيوسياسية التي قامت عليها هذه الكيانات، وأساسات «الشرعية» التي قامت عليها الأنظمة السياسية. منذ أن ارتفع العلم الروسي بألوانه الثلاثة فوق قباب الكرملين، بل منذ سقوط جدار برلين، كانت الأساسات تلك تتفسخ، وكان البنيان كله يتداعى ثم ينهار تباعاً، ولا يزال. فالعاصفة التي ولدها انهيار النظام الدولي القديم ضربت في أربع رياح الأرض، غير أنّ آثارها، حيث ضربت، لم تكن واحدة ولا متماثلة. ففي البلاد التي كانت فيها تلك المؤسسة العظيمة التي اسمها «الدولة» عملت الدولة على قراءة المتغيّرات العالمية برصانة علمية وبمسؤولية. ثم راحت تستقرئ مساراتها وتفاعلاتها ونتائجها، وتعمل من أجل أن يكون لبلادها موقع في خريطة العالم العتيد ودور في رسم هذه الخريطة. في العالم العربي، بطوله وعرضه وبجميع كياناته، لم تكن الدولة ـ بالمعنى الحقيقي للكلمة ـ قائمة، فالمحاولة الجدية اليتيمة لإقامة هذه المؤسسة انتهت برحيل عبد الناصر. أما ما عدا ذلك فأسر حاكمة، تستند إلى عصبيات ما دون وطنية، إثنية وطائفية وعشائرية، متحالفة مع رأسمالية طفيلية تتغذى على الفساد وزيادة التخلف، وتعتمد في سلطتها على أجهزة الأمن وعلى الجيش الذي اقتصرت وظيفته على الدفاع عن «النظام»، وتستمد شرعيتها من الوظيفة التي تؤديها هذه الأسر للخارج. وعندما فاجأتها المتغيّرات العالمية، وما بدا حينذاك أنّه الانتصار النهائي للغرب الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة، راحت الأسر الحاكمة تتسابق لحجز وظيفة لها لدى الولايات المتحدة تحديداً، وتقدم الدليل على أهليتها واستعدادها، فكان البند الأول في السيرة الذاتية CV الذي تقدمت به هو «السلام» مع الكيان الصهيوني. أما البند الثاني، فكان أهليتها واستعدادها للمساهمة في تمزيق الكيانات العربية بما يتلاءم والخريطة الأميركية العتيدة للشرق الأوسط الجديد. في ضوء ذلك، يمكن تفسير الدور الذي لعبه حكام السعودية ومصر والخليج في تمزيق العراق والسودان وليبيا، واليوم سوريا، وغداً لا نعرف أي دولة أخرى.

في المنطقة التي يسمونها «الشرق الأوسط»، ثمة بلدان ثلاثة لديها مؤسسات حقيقية اسمها «الدولة»، وهي إسرائيل وتركيا وإيران. ولا يتسع المجال هنا للحديث عن كيف قرأت كل واحدة منها المتغيّرات العالمية، وكيف رسمت استراتيجياتها ووضعت سياساتها، وخصوصاً كيف تعاطت مع واقع الفراغ الذي يملأ الفضاء العربي والركام الذي يملأ الساحة العربية. غير أن ما أرى ضرورة التوقف عنده قليلاً الآن هو الآتي. فعلى مدى عشرين شهراً، ومنذ أن اندلعت الشرارة في تونس وامتد اللهيب ليغطي معظم الساحة العربية، كان ظاهر المشهد يوحي بأنّ الشعوب قد انتفضت ضد حكامها، وأنّ الأنظمة أخذت تتهاوى أمام زحف الشعوب وتحت أقدام أولئك الذين تجرأوا على النزول إلى الشوارع. صورة المشهد تلك جميلة، لكنها ليست دقيقة. إذ إنّ الحقيقة ـ كما ذكرت آنفاً ـ هي أنّ الأنظمة كانت آيلة إلى السقوط وكانت تتهاوى، وقد استدعى الفراغ الذي أحدثه سقوطها انجذاب ركام هائل إلى دائرة الفراغ لملئه، وهو ما تفرضه قوانين الطبيعة ذاتها.

من بين الركام ذلك، برزت قوتان كانتا الأكثر استعداداً لملء الفراغ: بقايا النظام القديم وفي طليعتها الجيش، وبقايا العفن السياسي الذي خلفته عقود القهر والقحط، وأبرزها التنظيمات التي اتخذت من «الإسلام» شعاراً ومصدراً «لشرعيتها».

من موقعها الجديد في مؤسسات السلطة، كان من الطبيعي أن لا تطرح تلك «البقايا» السؤال الذي كان يؤرق الشباب الذين نزلوا إلى الشوارع وهو: كيف ننتقل من الانتفاضة إلى الثورة؟ كيف نحدث التغيير؟ ولكن السؤال الذي طرحته على نفسها تلك القوى هو كيف نحتل السلطة ونمسك بها ونرممها لنمنع بها الاندفاع الشعبي الهائل نحو التغيير؟

لقد تمكنت بقايا النظام القديم وبقايا العفن السياسي التي تسترت بشعار «الإسلام»

> نتائج الانتخابات في لبنان تتحدد قبل الانتخابات والاصطفافات الطائفية لها دور كبير في تحديدها

من ملء فراغات الماضي، واستحوذت على الحاضر، لكن فراغ المستقبل الذي كان يؤرق جموع الشباب كان هائماً على وجهه يبحث عن بطل. وفي فوضى الصراع، أخذت مجموعات حديثة تكشف عن نفسها وتكتشف حقيقة قوتها، وبدأت تشق طريقها إلى المستقبل. هذا ما تكشف في خضم معركة انتخابات رئاسة الجمهورية في مصر. وهذا أيضاً ما نراه اليوم في تونس.

كانت هذه إطلالة سريعة على المشهد العربي، اخترت منه ما أرى أنّه ضروري للحديث عن لبنان، وبالتحديد عن تداعيات أحداث المنطقة على لبنان. إنّ المتغيّرات التي أطاحت الأساسات التي قامت عليها الأنظمة العربية، وأدت إلى تداعيها ومن ثم سقوطها، هي نفسها المتغيّرات التي أطاحت الأساسات التي قام عليها النظام السياسي الطائفي في لبنان. ولن يتسع المجال الآن للحديث عن الظروف الخارجية التي ولدت هذه الصيغة منذ مئتي سنة، ولا عن المتغيّرات التي طرأت عليها، بل أتوقف عند آخر نسخة منها وهي «الطائف». في الطائف، توفرت ظروف خارجية أنتجت معادلة ثلاثية الأطراف، أميركا وسوريا والسعودية، أعادت إنتاج النظام اللبناني وصيغته «التعددية الطائفية»، ولكن بالاستناد إلى ثنائية جديدة سنية ـ شيعية، بدلاً من الثنائية السنية ـ المارونية التي كانت قائمة قبل الطائف. وبموجب هذه المعادلة، بشقيها الخارجي والداخلي، كان من الحقيقة بمكان القول إنّه لا يمكن أن تتشكل في لبنان حكومة ـ بحسب الطائف ـ إلا إذا كانت حكومة «وحدة وطنية».

كان لا بد للأحداث التي شهدتها المنطقة منذ مطلع هذا القرن، وبالتحديد منذ بدء الإعداد لغزو العراق أن تؤثر على لبنان، فبدأ الحديث عن الاحتلال السوري والسيادة، ثم جاء اغتيال رئيس الحكومة الأسبق رفيق الحريري وخروج الجيش السوري من لبنان، ثم عدوان تموز، وصولاً إلى مطلع 2011 حين أطيحت حكومة «الوفاق الوطني» آنذاك. هل صدفة أن يتزامن هذا الحدث المحلي مع اندلاع شرارة ما يحلو للبعض أن يسميه «الربيع العربي»؟

مهما كان الأمر، فقد جرت محاولات حثيثة على مدى خمسة أشهر من أجل إعادة تشكيل حكومة «وفاق وطني»، غير أنّ هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح. لماذا؟ إنّ دور السعودية والولايات المتحدة الأميركية في إحباط تلك المحاولات كان واضحاً، أما دلالته الرئيسية فهي أنّ «الطائف»، أو بالأحرى المعادلة الخارجية التي أعادت إنتاج النظام اللبناني في الطائف قد انتهت، وأنّ هذا النظام بالتالي قد افتقد الأساس الذي قام عليه. في هذا المجال، ثمة ملاحظة لا بد منها وهي أنّه في تلك الفترة التي فصلت ما بين سقوط حكومة «الوفاق» وقيام حكومة «اللون الواحد»، انطلقت شرارة الأزمة السورية التي، ومن دون إغفال العوامل الداخلية، كانت أصابع الولايات المتحدة الأميركية والسعودية واضحة فيها.

من ينظر إلى هذا البناء الذي اسمه الدولة اللبنانية من الخارج يلاحظ بوضوح التشققات المخيفة التي بدأت تظهر في جدرانه، والتي تجد سببها الحقيقي في الدمار الذي أصاب أساساته تحت الأرض، أي المعادلة الخارجية التي أشرت إليها.

واليوم، على هذا البناء المتداعي، الذي ذابت

رسوم «شارلي إيبدو»: فولتير زائف ومتزمتون حقيقيون

ياسين تملالي*

استطاع مَن حرّف الأوروبيون اسمَه من «محمّد» إلى «ماهومِتوس» ثم «ماهومي» واعتبروه، في زمن مسيحيّتهم الأولى، مجرّد دجّال، استطاع في ظرف عشر سنين أن يوحِّدَ شبهَ الجزيرة العربية تحت لواء ديانة جديدة، فامتدّت المملكةُ الإسلامية بضعَة عقود بعد وفاته من شواطئ الأطلسي إلى سفوح الهملايا. ولا يجادلُ مؤرخٌ جادّ في أنّه عبقريّ من عباقرة التاريخ، لا يخفِض من شأنه أنّه وُلد في قرية صحراوية لا في إحدى عواصم عصره، أو أنّه أحاط نفسَه بالمستضعَفين من كل جنس لا بالأشراف والنبلاء.

ويبدو أنّ مجلة «شارلي إيبدو» لا تعرف الكثيرَ عن سيرة نبيّ الإسلام وما يميّزُها عن سيرة مصلحين آخرين من تلازم بين التأمل الفلسفي وخوض لغمار الحياة سَفَراً وتجارةً وزعامةً سياسيّة، بين لغة الدعوة ولغة السلاح، بين السعي إلى الارتقاء الروحي بالعرب الوثنيين والعملِ على تقنين أبسط الأمورِ الدنيويّة. لذا لم يكنْ مستغرباً أن يستوحيَ رسّامو هذه الأسبوعية الفرنسية لتصويره كليشيهاتٍ عتيقةً من مخلّفات القرون الوسطى الأوروبية، مثلُهم في ذلك مثلُ صاحب فيلم «براءة المسلمين» ذي الوجه الغائم المتحوّل. ولم يتساءلوا: إذا لم تكن حياةُ «ماهومي» سوى سلسلةٍ من الملذّات، فكيف استطاع أن يقيمَ دولةً مساحتُها مليونان ونصفُ مليون كيلومتر مربّع، أصبحت بعد وفاته بمدّة قصيرة إمبراطوريةً مترامية الأطراف؟

ما أشبهَ اليومَ بالبارحة. تغيّرت شخوصُ القصّة، لكن حبكتَها حبكة القصّة نفسها التي عشنا أحداثَها منذ 7 سنوات، في أيلول/ سبتمبر 2005، عندما نشرت الصحيفة الدانماركية «جيلاندز بوستن» «كاريكاتيرات مسيئةً» أعادت نشرَها «شارلي إيبدو» في شباط/ فبراير 2006، ولم تكن هي الأخرى سوى تحديثٍ فجّ لكليشيهات قديمة عن الإسلام والمسلمين.

ما أشبه اليومَ بالبارحة. «رسوم مسيئة»، تظاهراتٌ في البلدان الإسلامية وتصريحاتٌ رسمية أوروبية أميركية محرجةٌ تنتقد «الاستفزاز» من دون أن تنسى الدفاعَ عن «حرية التعبير»، لا بالضرورة إيماناً بها بل خوفاً من سهام أساطين الإسلاموفوبيا، ممن حوَّلهم خوفُ الأصولية الإسلامية إلى «متطرفي علمانية»، يتعمّدون الخلطَ بين المسلمين وأعضاء تنظيم القاعدة.

> يطالبون بحرية الدعوة في «دار الكفر» ويدعون إلى مناوءة كل دعوة غير إسلامية في «دار الإسلام»

ما أشبه اليومَ بالبارحة. «خبراءُ» يُسهبون في الحديث عن تحريم الإسلام «تصوير كلّ ذي روح» (فما بالك بالرسل) ويذكّرون بهدم طالبان تماثيل باميان في 2001، ولا يتساءلون: ما سرُّ تصويرِ البشر (بل والأنبياء) في الفنّ التركي والفارسي، وما سرُّ نجاة هذه التماثيل البوذية من الاندثار طيلة قرون من الحكم الإسلامي؟

ما أشبه اليومَ بالبارحة. في 2005، عندما نُبِّهت «جيلاندز بوستن» إلى أنّ تمثيلَ نبي الإسلام وعلى رأسه عمامةٌ في شكل قنبلة قد يعني وصفَ كل المسلمين بأنّهم «أبناءُ لادن» محتملون، صاح مسؤولوها: «حريّة التعبير»، بالضبط كمدير «شارلي إيبدو»، ستيفان شاربونيي، في ردّه على منتقديه. نسيت هذه الجريدة الدانماركية آنذاك أنّها رفضت في 2003 نشرَ كاريكاتيرات تمثّل المسيحَ تجنّباً لإهانة المسيحيين، ونسيت زميلتُها الساخرة الفرنسية أنّها في تموز/ يوليو 2008 استغنت عن خدمات أحد رساميها، موريس سينيه، متهمّة إيّاه بمعاداة السامية (وهي تهمة بُرّئ منها بحكم قضائي في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 2010).

وللأسف الشديد، عدا بعض الاستثناءات، لا يحتلّ المشهدَ في مواجهة مخرج «براءة المسلمين» ورسّامي «شارلي إيبدو» سوى متزمتين حقيقيين، بعضُهم لا يزال يؤمن بأنّ الصورة من فعل الشيطان. لا يكتفي هؤلاء الناجون من العصور السحيقة بإدانة «الرسوم والأفلام المسيئة» فتراهم يُدينون «الغرب الكافر» كلّه، لا فرقَ بين الشعوب والحكومات، بين ناخبي اليمين المتطرف والمدافعين عن مسلمي أوروبا وأميركا، بين مساندي السياسات الإمبريالية والرافضين لها ممّن عارضوا غزوَ العراق وأفغانستان. وبدلَ أن ينتقدوا استعمالَ حرية التعبير هذا الاستعمالَ السّادي، ينتقدون حريةَ التعبير ذاتَها وكأنّها ثمرة من ثمرات «الحضارة المادية الغربية» لا مكسبٌ من مكاسب البشرية جمعاء. كذلك، لا تشغلُهم معاناةُ مسلمي المهجر (بل تراهُم يُفاقمونها ببعض تصريحاتهم) بقدر ما يشغلُهم «المساس بالمقدّسات» وكأنّ من قبلَ إسلامَ أعتى «كفار قريش» ستحُطُّ من شأنه رسومٌ دافِعُ الإبداع في إنجازها أضعفُ بكثير من الرغبة الجامحة في الإيذاء... وزيادة حجم المبيعات.

لا شكّ في أن هؤلاء المتزمتين يهوون الدفاع عن دينهم، لكن واضحٌ أيضاً أنّ هذه القضايا الإعلامية تمكّن كثيراً منهم من الاستمرار في تجاهلِ ملايين «المحمَّديين ممن يعيشون كالعبيد تحت سلطة أنظمة تدّعي الانتساب إلى

الأخبار
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»
رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2006–2007)
مستشار مجلس التحرير
انسي الحاج
رئيس التحرير ـ المدير المسؤول
إبراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب ■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه ■ إقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليق ■ مجتمع: مهى زراقط ■ عالم: حسام كنفاني ■ ثقافة وناس: أمل الأندري ■ وحدة الأبحاث: عمر نشابة
■ المدير الفني: إميل منعم ■ مدير الموقع الالكتروني: منصور عزيز
■ رئيس مجلس الادارة ابراهيم الأمين ■ الادارة المالية: فادي خليك
■ الموارد البشرية: ريما اسماعيل
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963
■ www.al-akhbar.com
■ الإعلانات Tree Ad 611115 / 01 ـ 252224 / 03
■ التوزيع شركة الأوائل 15ـ 666314 / 01 ـ 828381 / 03